أشياء فلسطينية

قصة بقلم رشاد أبو شاور

« الى الرجال الذين يصنعون فجر الانسان العربي »

(الانتظار)

الى الشرق من نهر الاردن ، تمتد الخيام شريطا رماديا قاتما .. في الليل تغوص في الظلمة ، ويجثم عليها الصمت ، يلعب الصغار طيلة النهار ، يبنون بيوتا من تراب ، ثم يهدمونها حين يهبط المساء ، وكل يتجه الى خيمته .. ربما وقف أحدهم للحظة ، مثل حيوان صغير أليف ، يتشمم بأنفه رائحة ما .. ويرسل نظراته الى الغرب حيث تتوهج أريحا ، وتنطفىء المخيمات القديمة ، ويهرول الصغير من جديد.. وفي قلبه ينغرس الشوق والالم ..

الاباء يشغلون أنفسهم طوال ساعات اليوم بسماع المذياع واحتساء الشاي . يسأل واحدهم الاخر :

ـ ترى .. هل سنعود ؟

ربما يخيم الصمت ، ربما ينبع صوت حاد متألم :

ـ ها .. ها .. تعود ؟ أنت تحلم يا رجل .

قد يعلق أحد الحضور :

ـ ربك سيفرجها ذات يوم .

... ويغتسلون بالندم والعذاب ، وتتشنج الافواه والعيون ، والاشواق .. ترى أمامها رقصات شيطانية لا تفسر ، ويندفع بغتة صوت عجوز حارب مع الاتراك :

ـ انني لا أعرف كيف هزمنا .. أهذه حرب ؟ كانت المعارك تستمر شهورا ، ايه .. تلك كانت حروبا بحق .

وتعلق امرأة تعد الشاي :

ـ نحن مجانين ، كان يجب ألا نهرب .

يرد الشيخ :

ـ العرض .. العرض غال يا امرأة ، أنترك بناتنا لليهود ؟.. لقد ذبحوا شباب غزة ، وهتكوا الاعراض .

تقول المرأة بحدة :

ـ هذا أفضل من الغربة ، ألا ترى الهوان الذي نعيش

ـ عقل امرأة ، أنت لا تعرفين اليهود .

هكذا حسم الشيخ الحوار .. وينفض المجلس وكل واحد منهم يدعو الله أن تتغير الاحوال ، وتزفر الصدور آهات حرى ، حين ترسل العيون نظراتها عبر الظلام الكثيف ، صوب الطرف الاخر من النهر .

(زغرودة مع الفجر)

لم يعد الليل مظلما وكئيبا ، اذ تدوي كل ليلة الانفجارات ، وزخات الرصاص ، ممزقة الهدوء المريب في الجانب الآخر .

يصعد الناس في مخيم الكرامة فوق سطوح المنازل المبنية من الطوب المشوي ، يتطلعون صوب أريحا والبحر الميت المستلقي تحت الشمس مثل سطح من الزجاج الازرق اللامع . أحيانا تتصاعد الانفجارات من جهة مستعمرات بيسان ، أهالي مخيم الكرامة ومخيمات اللاجئين الجديدة يشتعلون بالحماس ، وتمتزج مشاعر الدهشة بالاعجاب ، ويتساءلون :

ـ من أين يأتي هؤلاء الشباب ؟

ربما يجيب أحد الشباب بمنطق العارف :

ـ انهم لا يأتون .. انهم بيننا ..

ولا يصدق الناس ذلك .

***

خرج أبو عرب من خيمته يتأبط مدفعه الرشاش ، والى جواره أبو جابر وأبو عائد .. رأتهم امرأة الجيران ، احتضنتهم نظراتها باعجاب ودهشة ، وأطلقت زغرودة حارة طويلة وقوية ، هب العجوز من نومه يلعن ويشتم ..

ـ الناس اليوم بلا شرف ، لقد فقدوا الخجل والحياء ، الشباب يموتون ، والبعض يقيمون الاعراس ، أين الاخلاق ؟

تسأله امرأته مستفسرة :

ـ ما بالك ؟

ـ ألا تسمعين الزغاريد ؟ أين الشرف ؟

انسرب من خيمته دون أن يعتمر كوفيته ، وألفى امرأة واقفة بذهول ..

ـ ما بالك يا امرأة ، أجننت ؟

ـ ألم ترهم ، أبا عرب ، وشابين آخرين يحملون اسلحتهم ويتجهون الى الغرب ؟ انهم من الفدائيين ، يا الهي ، لو انك رأيتهم.

ـ أحقا تقولين ؟

ـ لقد اتجهوا الى الغرب .

ويعتذر العجوز نادما :

ـ سامحيني يا ابنتي .

حاول العجوز أن يراقب الشباب الذين أوغلوا بعيدا ، وضع يده اليمنى على عينيه ، كأنما يعتصر كل طاقته البصرية من أجل رؤيتهم . وبأسى يقول :

ـ انني لا أراهم .

ـ لقد توارو ...

ويتنهد العجوز :

ـ ليتني كنت شابا .

لم العجوز جسده النحيل ، وقرفص ، ثم علا نحيبه . بعض الناس خرجوا من خيامهم كالعادة ، وأخذوا يرسلون نظراتهم نحو الغرب .

قال أحد الشباب :

ـ سنسمع اليوم أصواتا رائعة .

سمع من يقول :

ـ لماذا لا تتبعهم .

ابتسم ، ولم يحول وجهه عن جهة الغرب ..

ـ ذات يوم .. سأتبعهم .. هذا لا شك فيه .

(الرجال)

« أبو جابر » :

تركت مخيم اليرموك ، خلفت ورائي وجوه الزملاء ، وضحكاتهم الباهتة ، وحوارهم المتواصل عن النكسة و « غيفارا » ، والثورة ، كدست كتبي في صندوق خشبي عتيق ، وحررت جسدي من البدلة الصوفية الرمادية ، وفارقت ماضيّ ..

دمشق الان تنام على سفح قاسيون ، عيونها ذابلة مسهدة ، والمخيم ، أعرف ليله الاسيان ، فالليل موسم الخوف في المخيم .

ها أنذا أطل بعد غياب مرير ، أعانق بأشواقي الراعفة ، أرضي المدماة ، بدهشة الغريب وحيرته ، أطأ حافة الارض غربي النهر ، دون خوف ولكن باضطراب العاشق في لقائه الاول .. أحاول أن ألـــوي وجهي الى الخلف ، لكني لا أقوى على ذلك ، فقوة مجهولة تشدني الى الامام .. الاصبع على الزناد ، والمخزن يغص بالطلقات ... وفجـــأة يأتي صوت الاب :

ـ عمك أعدمه الانكليز في حيفا ، ضحى بشبابه ، لكنه ربـــح شرفه ، لم يعش في الغربة والذل مثلنا .

مرة أخرى قال الاب لي :

ـ تطول غيباتك عن البيت ، أنت تخفي عني أشياء هامة .

حاولت أن أبعده عن معرفة الحقيقة :

ـ أنا مضطر للسهر مع الزملاء للدراسة .

ومثل السيف كلماته كانت صاعقة ، حاسمة :

ـ أنت تعمل معهم ، أنت تتدرب في حركة ما .. على كل هـذا ليس عارا ، أنت تسير في الطريق التي اختارها عمك ، وهذا شرف.

أيها الاب البعيد ، المسافة لا تفصلنا ، انني أسير ، وها أنذا مع الرجال عيوننا تنور الدرب ، نصنع في الظلام أثلاما من النور ، وحين يهبط الليل تنام الحياة ، ونصحو نحن .

« أبو عائد » :

الكويت بعيـــدة الان ، (الطوز) يصفع الوجوه والعيـــون ، والرطوبة تضغط الانفاس ، وانتظار نهاية الشهر لتسلم الراتب وتحويل قسم منه للاسرة في مخيم (عقبة جبر) والخطيبة المنتظرة ، زينب السمراء الممتلئة الجسد ، كل هذه الامور تتلاشى مثل فقاقيع الزبد ، تغور بعيدا ، كل تفاهات الاحلام الشخصية تنتهي مثل الكذبة السمجة.

ـ من أنا ؟

أنا الان ابن اللحظات الصغيرة هذه ، أنا الشاب الاسمـــر ، القصير القامة ، الحاقد النظرات ، أتيـت .. وأنت أيها الليـــل شاهد ، لن أبحث عن الاهل ، فلقد عرفت الطريق ، وها أنذا الان مع الرجال ، أعانق الارض الظمأى ، وأسير بلا خوف ، وأعرف أن الموت ينتظر بصلف وعجرفة ، لكن أقدامنا تـــدق ، تقرع الباب بعنف ، مقتحمة وغير هيابة ... لقد عرفنا الطريق لصدر أمنا .

تدوي الكلمات في الرأس ، تلك الكلمات الحاسمة التي قلتهـــا وأنا أعرف ما أريد ..

ـ لن ألتمس لنفسي مهربا بعد الان ، بأن أقدم لكم بعض الدنانير لاريح ضميري ، لقد صممت على العودة ، للعمل معهم هناك .

« أبو عرب »

ـ ما اسمك ؟

ـ أبو عرب .

ـ أهذا اسم ؟

ـ نعم ، نحن نحب الاختصار والوضوح .

أنا لا أحب الكلام الكثير الممل ، ولدتني أمـــي عام ١٩٤٧ ، حين كبرت بدأت أندرب ، ومنذ البداية عرفت طريقي ، ويوم التاسع من حزيران بدأت عملي مع الرفاق .. كانت الضربة الاولى في احدى المستعمرات .. الضربات الاخرى نسيتها .. أسير الان مع رجلين جديدين .. أقودهما وأنا أعرف الدرب والهدف ، الغريب انهمـــا يسيران ، وكأنهما يعرفان الدرب بمثل خبرتي ..

الصمت والليل والبنادق ، هذه أغنيتنا ، مخيم الكرامة بعيـد ، ما زالت تضج في شراييني (زغرودة) امرأة الجيران ، وينفرك تحت قدمي حجر صغير ، يخرج صوتا ، وكأنما هو زغرودة مكبوتة تطلقها الارض .

حصلت على الشهادة الثانوية ، لم أبحث عن عمل ، القيت وظيفة النجاح في علبة كرتونية مع ملابسي القديمة ، حاول والدي أن يمنعني في البداية لكنه أقلع عندما لمس اصراري ، ولقد لاحظت أخيـرا ان والدي تغير ، اذ انه اندفع مرة قائلا :

ـ أتأخذونني معكم ؟

حين احتضنته أخذ يبكي على كتفي مثل طفل .

ـ اعتن بالاسرة يا أبي ، أما نحن فسنعرف كيف نقوم بواجبنا ، ان الطبول تدق معلنة عـــودة الانسان الفلسطيني الى الســاح .

توقفت ، سألت أبا جابر :

ـ هل تعبتما ؟

واصلا سيرهما بتجاهل واقدام .

قال أبو جابر :

ـ مع كل انفجار كنت أولد من جديد .

رد عليه أبو عرب :

ـ بعد فترة تدمن هذه الاصوات .

ثم أمرهما :

ـ لنسرع أكثر .. ان كلابهم تفيق الان ..

وأخذت الاضواء البعيدة تتحرك مثل اللصوص .

قال أبو عرب في نفسه :

ـ ربما كان أهالي المخيمات يرسلون نظراتهم عبر الظلام بتشف .

وتصاعدت في الليل أصـــوات أفعال الرجال الصامتيـن بدوي هائل .

عمان

رشاد ابو شاور

صدر حديثا :

حَرب العِصابات

تعبوينتها الاساسية وعملياتها

تـأليف ماو تسي تونج

ترجمة نـاجي علوش

كتاب عملي لم يصدر بالعربية من قبل يبحث في الاساليب الاساسية لحـرب العصابـات كالكمائـن والهجمات المفاجئة وتدمير مواصلات العدو الخ ...

منشورات دار الطليعة بيروت ـ ص.ب ١٨١٣